﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ [إبراهيم: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـــرُ صفة مكرهم بعد ذِكْرِ أحوالهم وصفة عقابهم

في الآية السّابقة ذَكَرَ الله تعالى صِفَةَ عِقاب الظّالمين، وفي هذه الآية ذَكَرَ كَيْفِيَّة مَكْرِهِم وعَراقتهم في الكُفْر والجُحود والعِناد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرُواْ﴾: أصْلُ (مكر): يدلُّ على الاِحْتِيالِ والخِداع[2]، ومنه المَكْرُ: وهو صَرْفُ الغير عمّا يقصده بحيلةٍ، قال الجُرجانيُّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[3]، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ [الرعد: 33]، والمراد به هنا: تَبْييتُ فِعْلِ السّوءِ بِالْغَيْرِ وَإِضْمارُهُ[4].

2) ﴿لِتَزُولَ﴾: أصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على التَّحَوُّلِ والانتقالِ[5]، يُقال: زالَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ، ويُطْلَق بِمعنى ذَهابِ الشَّيْءِ، يُقال: زالَ الشَّيْءُ، يَزولُ، زَوالاً، أيْ: ذَهَبَت حَرَكَتُهُ ومِن مَعانِيه: التَّنْحِيَةُ والإبْعادُ، يُقال: أزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُهُ وأبْعَدْتُهُ[6]، ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاِضْمِحْلالِ، وزوالِ المُلْكِ[7]. والجَمْعُ:

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 227.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/250.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زول).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زول).

أَزْوالٌ، وحقيقة الزَّوالِ في الآيةِ: تَنَحِّي الشَّيْءِ عَنْ مَكانِه، أي: تتحرَّك هذه الجبال من مكانها، أو تتفتَّت، أو تخرّ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ الله تعالى مُحيطٌ بمكر الظّالمين

يخبر الله تعالى أن حال هؤلاء الظالمين كحال من سبقهم حذو القذّة بالقذّة، فقال: هؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فلم يعتبروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جُهدَهم لإبطال الحقِّ، وإحقاق الباطل، والقضاء على دعوته، والله يعلم تدبيرَهم، لا يَخْفى عليه منه شيءٌ، وتدبير هؤلاء على عَظمته ضعيف، فهو لا يزيل دينَ الله ورسالته، خلافًا لِمَكْر الله بهم، وشدَّة عقابه لَهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ وأثرها في ارتباط الجُملة في السّياق:

بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ

الواو في ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ حاليَّة، والجملة حال مِنَ الضَّمِيرِ الأوَّلِ في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أوْ مِنَ الثّاني، أوْ مِنهُما جَمِيعًا[2]، ودَلَّت الواو في ﴿وَقَدْ﴾ على تحقيق المَكْر وتوكيده، وإنَّما قُدِّمَ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ لِشِدَّةِ ارْتِباطِه بِما قَبْلَه، أيْ: فَعَلْنا بِهِمْ ما فَعَلْنا، والحالُ أنَّهم قَدْ مَكَروا في إبْطالِ الحَقِّ، وتَقْرِيرِ الباطِلِ مَكْرَهُم العَظِيم الَّذي اسْتَفْرَغوا في عَمَلِهِ المَجْهودَ، وجاوَزوا فِيهِ كُلَّ حَدٍّ مَعْهودٍ بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ، فالمُرادُ بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ، أوْ قَدْ مَكَروا مَكْرَهُمُ المَذْكورَ في تَرْتِيبِ مَبادِئِ البَقاءِ، ومُدافِعَةِ أسْبابِ الزَّوالِ[3].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/365، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/250.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/377.

الموقع النَّحويُّ لـ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ونكتة الإسناد:

وقع قوله ﷻ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ مفعولًا مُطلقا؛ لتأكيد مَكْرهم، وأضافه إليهم لأنَّه مُلتصقٌ بهم، وصفة دائمة لا تنفكُّ عنهم، وإضافة المَكْر (المصدر) إلى الضّمير (هم) من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وفيه دلالة على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم، وبَذْلَهم أقصى طاقتهم في المَكْر والمَكيدة وتدبير الشَّرِّ للرَّسول ﷺ وصحابته الكِرام رضوان الله عليهم، واستُفيد هذا المعنى مِن إضافة المصدر الَّتي تفيد الاستغراق.

التَّأكيد على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم في الكيد وتدبير الشَّرِّ

إيثارُ استعمال الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾:

المَكْر: تَبْييتُ فعلِ السّوء بالغيْرِ وإضماره، مع إظهار ما يُخالف ذلك، وأوثر استعمالُ الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾ دون غيره؛ لدلالته على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم، فهؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فَلَمْ يَعْتَبِروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مَكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جهدَهم لإبطال الحَقِّ، وإحقاق الباطل، والَّذي كان مِن مَظاهره محاولتُهم قَتْلَ الرَّسول ﷺ[1].

الدَّلالة على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم

بديع الجناس الاشتقاقي بين ﴿مَكَرُواْ﴾، و﴿مَكۡرَهُمۡ﴾:

أُكِّد فعل المكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ بتكرار مادَّة المَكْر بطريق جناس الاشتقاق للدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المَكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان ورَسولها ﷺ.

الدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المَكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان

دلالة (الواو) في: ﴿وَعِندَ﴾:

الواو (الواو) في قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ عاطفة؛ عَطَفَتْ هذه الجُمْلة على ما قَبْلَها ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾، ويمكن أن تكون للحال على معنى: والحال إنَّ مكرهم مكشوفٌ عند الله؛ وقد اختلف

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/376.

بيان انكشاف مكرهم بعد افتضاح أمرهم

المفسِّرون في المرادِ بالَّذين مَكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الَّذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم[1]، ومنها: أنَّهم هُمُ المُخاطَبون في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: الَّذين سَكَنوا في مساكنِ الَّذين ظلموا أنفسَهم[2].

دلالة العنديَّة ومعناها:

التعريض بالوعيدِ والتَّهديدِ

العِنْدِيَّةُ في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ المقصود بها: وعند الله جزاء مكرهم الذي فعلوه، أو وعند الله مكتوب مكرهم، فهو مُجازيهم، أو عند الله مكرهم الذين يمكرهم به على أن يكون المكر هُنا على سبيل المُقابلة والجزاء، لأنَّه ﷻ محيط به علما وقدرة فيعود جزاء مكرهم عليهم[3].

وعلى كل هذه المعاني ففي الجُمْلة تَعريضٌ بالوعيدِ والتَّهديدِ بالمُؤاخذةِ بِسوءِ فعْلِهم، أو هو وَعيدٌ بالجزاءِ على مكْرِهم[4].

سرُّ تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

التَّلويح بمكان العذاب وعيدًا وتهديدًا

وقُدِّم المُسْنَد ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ على المسند إليه ﴿مَكْرَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ لإفادة الحَصْر، فالله سبحانه وَحْده هو الرَّقيب عليهم، والمُطَّلِع على سوء تدبيرهم، وعظيم مَكْرهم، وخبايا نفوسهم، وفساد طَوِيَّتهم، وسرّ التقديم هو الوعيد، ويُرشِّحُ ذلك استعمال العنديّة، ففيها تلويحٌ بمكان العذاب وفي هذا من الوعيد مافيه.

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم

عُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ

(1) ابن جرير، جامع البيان، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 3/120.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/455، والفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/261.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ حيث كان الظّاهر أن يُقال: وعِنْد اللّه مَكْرُهم وإن كان لتزول منه الجبال؛ ذلك لتأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم.

دلالة (إن) واللّام، وأثر دُخولهما في الجُملة:

تعظيم مَكْرهم بالنِّسبة من جهة جهدهم فيه، وبيان ضعفه لقلّة تأثيره وتحقيره بجانب عقوبتهم

﴿وَإِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ إمّا أن تكون نافِيَةً، واللّامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لَها، والمَعْنى: ومَحالٌ أنْ تَزولَ الْجِبالُ بِمَكْرِهِمْ، عَلى أنَّ الْجِبالَ اسْتِعارَةٌ تصريحيَّة، أو تمثيليَّة حيث بَيَّنت شِدَّة مَكْر أهْل الكُفْر ومتانته وعظمته، وافتنانهم فيه، وبلوغهم الغايةَ منه حتَّى استحال إلى كَوْنه مُهَيَّئًا لإزالة الجبال الشُّمِّ الرَّواسي عن أماكنها لكوْنه مَثَلًا، وشُبِّهت آياتُ اللّه وشَرائعه بالْجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا، ويُؤَيِّده قِراءَةُ ابْنِ مَسْعودٍ (وَما كانَ مَكْرُهم)[1].

وإمّا أن تكون ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقيلَةِ، والمقصودُ: تعظيم مكرهم؛ لأنَّ ما فُعِل مِن المَكْر، وما أُعِدَّ مِن الكَيْد لإزالة ما هو كالجبال الشُّم الرّاسية في الثَّبات والقوَّة والضَّخامة يكون في غاية الشِّدَّة والقوَّة.

والمَعْنى أنَّهم مَكَروا لِيُزِيلوا ما هو كالجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا مِن آياتِ اللّه تَعالى وشَرائِعِه[2].

والغرض من اعتبار (إنْ) نافية الاستخفاف بِمَكْر الكُفّار؛ لِضَعْفه وَوَهَنه مَهما بَلَغ مِن الشِّدَّة في مقابل ثَبات شريعة اللّه، ورسوخها المُؤَيَّدة بِمَدَدٍ مِنْه سبحانه .

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانَ﴾:

الدَّلالة على رُسوخ مكرهم واستقراره

التَّعبير بِفِعْل الكَوْن: ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ يدلُّ على رسوخ مَكْرهم واستقراره وثباته وتأصُّله.

(1) القاسميُّ، محاسن التّأويل: 7/3738.

(2) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/154، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/182.

توجيه القراءات في: ﴿لِتَزُولَ﴾:

عَـــدَمُ تَـفـاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قَوِيًّا أَوْ ضَعِيفًا

في اللّام قراءتان: قراءةُ الجمهور بِكَسْرِ اللّام: ﴿لِتَزُولَ﴾، والمعنى وما كانَ مَكْرُهم زائِلَةً مِنهُ الجِبالُ، وقراءة الكِسائي: بِفَتْحِ اللّام الأولى، ورَفْعِ اللّام الثّانِيَةِ فتصير (لَتُزُولُ)[1]، والمعنى: هو مَكْرٌ عَظِيمٌ لَتَزولُ مِنهُ الجِبالُ لَوْ كانَ لَها أنْ تَزولَ[2].

وقَوْلُه تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مَسوقٌ لِبَيانِ عَدَمِ تَفاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قَوِيًّا أوْ ضَعِيفًا[3].

معنى (من):

إفادة الابتدائيَّة والسَّببيَّة

(مِن) هُنا في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ﴾ ابتدائيَّة، ويمكن أن تكون تعليليَّة سببيَّة، أي، بسبب مكرهم تزول الجبال.

نُكْتة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلْجِبَالُ﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، والتَّشويق إلى المُؤخَّر، حيث إنَّ السّامع يترقَّب، ونَفْسُه تَتَشوَّف لِمعرفة هذا الشَّيء الَّذي يَنْسِفه مَكْرُ الماكرين، وكَيْد الكائدين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والخداع والكَيْد:

تشترك الألفاظ الثلاثة في معنى قُبْح السّوء بخفاء

المَكْر: المَكْرُ كما قال الرّاغب: صَرْف الغير عمّا يقصده بحيلة[4].

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 363، وابن الجزريّ، النّشر: 1/50.

(2) فصّل ابن عاشور الغرض من القراءة الأولى بقوله: "والمقصود الاستخفاف بالماكرين ومكرهم، أي: ليس مكرُهم بِمُتجاوِز مكر أمثالِهم، وما هو بِالّذِي تزُولُ مِنهُ الجِبالُ، وفي هذا تعريض بِأنّ الرّسُول ﷺ والمُسلِمين الّذِين يُرِيدُ المُشرِكُون المكر بِهِم لا يُزعزِعُهم مكرُهم، لِأنّهم كالجِبالِ الرّواسِي"، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.

وأشار إلى المقصد في القراءة الثانية فقال: "أي: جدِيرة، فهو مُستعمل في معنى الجدارةِ والتّأهُّلِ لِلزّوالِ لو كانت زائِلة، وهذا مِن المُبالغةِ في حُصُولِ أمر شنِيع أو شدِيد في نوعِهِ على نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝﴾ [مريم: 90]". يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/280، والسّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون: 7/126 - 127.

(4) الرّاغب، المفردات: (مكر).

وهو إرادَة وتَدْبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ بِحَقِّ مَنْ لَمْ يعلمْ بِما يُراد به وَلَمْ يَحْتَسِب أنْ يَأتيهِ هَذا الفِعْلُ مِنْ حَيْثُ أتَىَ مِنْه بِصورَتِه تلك.

وهو: إرادَةُ الماكِرِ فِعْلَ السّوءِ بِالمَمْكورِ بِهِ فِي غَفْلَة مِنْهُ عَمّا يُرادُ بِهِ وَعَدَمُ حَذَرِهِ مِنْ شرٍّ يَأتيهِ مِنْ جِهَةِ الماكِر.

أمّا الخِداع فهو إظْهارُ خِلاف ما تُخْفيه: هو تَدْبِيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ يقومُ بِهِ الخادعُ لإيقاعِ الضَّررِ والشَّرِّ بالمخدوعِ من حيثُ لم يحذر ويتنبّه، كأنْ يَرقبَ المخدوع قدومَ السّوءِ من بابٍ فيفجأه مِن باب آخرَ، وعداوةُ الخادع والمخدوع بَيِّنَةٌ، وكلاهما يَتَرَبَّص بالآخر.

أمّا الكَيْد فكلُّ تَدْبيرٍ لِفِعْلٍ خَفِيٍّ أو ظاهر يريدُ مِنهُ الكائِد دَفْعَ المكيدِ أنْ يرتكبَ عملًا سيئًا أو جُرمًا وذنبًا بإرادته بدونِ جَبرٍ أو إرغام.

فالمكورُ به لا يحتَسِب أن يأتي من الماكر سوءٌ، ولكنَّ المخدوع عداوتُه ظاهرةٌ وتربُّصهما معلوم ولكنَّه ينتظر السّوءَ ويَتَحَسَّب له مِن طريق فَيَفَجأه مِن طريق آخرَ[1].

(1) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (مكر، خدع، كيد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»